قراءة في كتاب

منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي*

تأليف: تهاني عفيف يوسف جابر**

عزيز البطيوي***

يتناول هذا الكتاب قضية منهجية ومعرفية مثَّلت محور اهتمام مشروعات الإصلاح والشهود الحضاري في حركتها الدائمة نحو الاستهداء ببصائر القرآن الكريم في بناء الإنسان، وإصلاح حاله، والارتقاء باستعداداته في مدارج الهدايات. وقد سعت المؤلِّفة في كتابها إلى الكشف عن معالم المنهج القرآني في تحقيق "التغيير[1] الفردي"، وتقديم رؤية تأصيلية لأسس التغيير الفردي في القرآن الكريم، وخصائصه، ومعالمه، وأساليبه، ومسالك الارتقاء الفردي في عملية التغيير، وموانع تحقُّقه، إلى جانب الحذر من الوقوع في إعادة إنتاج مقولات مادية وضعية تشكَّلت داخل نسق معرفي له نماذجه الإرشادية ومرجعياته التفسيرية التي أسَّسها على رؤيته الخاصة إلى العالم، وإلى النفس الإنسانية تحديداً، وهو ما يدفع إلى القول بأنَّ إشكالية "التغيير الفردي" طالما تنازعها منهجان رئيسان، هما: المنهج الإسلامي، والمنهج المادي الوضعي.

وتأسيساً على ما تقدَّم، يمكن عَدُّ هذا الكتاب محاولة جادة في اتجاه استخلاص عناصر المنظومة القرآنية المتكاملة للمدخل الإنساني الفردي، في إقامة الإصلاح،

---

* جابر، تهاني عفيف يوسف. **منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي**، الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

** دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، كلية الشريعة، قسم أصول الدين، عنوان الرسالة: "دلالات القراءات القرآنية في الجوانب العقدية".

*** دكتوراه في الدراسات الإسلامية من جامعة ابن زهر بأكادير، ودبلوم الدراسات العليا في علم الاجتماع، أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة ابن زهر بأكادير-المغرب، ورئيس مركز الدراسات والأبحاث في الفكر والمجتمع. البريد الإلكتروني: elbittioui@gmail.com

تم تسلم القراءة بتاريخ ٢٠١٦/١٠/٢٥م، وقُبلت للنشر بتاريخ ٢٠١٦/١١/٢٨م.

[1] إنَّ إيرادنا مصطلح "التغيير" إنَّما هو جرْي على عادة المؤلِّفة، ولا يعني اتفاقنا معها فيه، وهو ما سنأتي على بيانه في خاتمة هذه المراجعة.

والنهوض بمقتضيات الاستخلاف والتزكية والعمران، وتأكيد أنَّ التغيير هو في حقيقته عملية إنسانية مركَّبة ومتكاملة، تبدأ بالفرد، وتنتهي بارتقاء الأُمة إلى التحقُّق بمعاني الخيرية والشهادة، وهي عملية محكومة بسُنن الله تعالى في الاجتماع البشري الكفيلة بتحقيق الفاعلية الحضارية، ومتابعة الدور القرآني التاريخي في إنتاج حلقات التغيير؛ فرديًّا، واجتماعيًّا.

وجاء الكتاب في مقدمة، وتمهيد، وخمسة فصول، وخاتمة، وكشَّاف لأهم مصطلحات الكتاب ومفرداته، وهو يقع في (٢٦٤) صفحة، وقد جمَّله تقديم الدكتور محمد نبيل طاهر العمري الذي أشاد بفكرة الكتاب، والآفاق الواسعة المدى التي يمكن أنْ يفتحها أمام الباحثين، وكل مهموم بقضية إصلاح الفرد والمجتمع.

وقد صدَّرت المؤلِّفة أول فصولها بعنوان: "مستلزمات الدراسة في موضوع منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي"، فأوعبت في تناول معنى المنهج والتغيير لغةً واصطلاحاً. وبعد تتبُّعها لمعاجم اللغة خلُصت إلى أنَّ مدار المنهج على معاني الوضوح والبيان والاستقامة، وأنَّ المنهج في الاصطلاح، وبحسب موضوع البحث، هو تلك "الطريقة السوية المنضبطة التي اتخذها القرآن الكريم سبيلاً له، بما تضمَّنته -الطريقة- من أُسس، وما استخدمه القرآن من وسائل وأساليب، للوصول إلى أهدافه ومقاصده."[٢]

وأبرزت الباحثة أيضًا توجُّه معاجم اللغة إلى تحديد دلالة التغيير بالتحويل والتبديل، واشتراك هذه الألفاظ الثلاثة في معنى اختلاف الشيء عن أصله، فيكون التغيير هو اختلاف الحال عما كان عليه سابقاً، وانتقالها من الصلاح إلى الفساد كما هو قول ابن منظور الذي أوردته الباحثة، معتبرةً التغيير عملية إرادية بخلاف التغير.[٣] وقد أوردت الباحثة تعريف علماء الاجتماع والتفسير لمفهوم التغيير، وبيَّنت مواضع[٤] ورود لفظ "التغيير" في القرآن الكريم، واستنتجت أنَّ الآيات تحمل معنى التغيير الإيجابي، بالرغم من أنَّ سياقاتها لا تُشعِر بذلك؛ إذ الحديث فيها عن تغيير خلق الله، أو فطرة الله، أو نعمة

[٢] جابر، **منهج القرآن الكريم في التغيير الفردي**، مرجع سابق، ص٣٥.
[٣] المرجع السابق، ص٤١.
[٤] المرجع السابق، ص٤٣-٤٥.

الله، حتى إنَّه لم يقل بذلك أحد من أهل التفسير المعتبرين. ثم عرضت الباحثة لخصائص الإنسان النفسية مثلما صوَّرها القرآن الكريم، وهي خصائص تتناول استعدادات الفرد وإمكاناته وجاهزيته للتغيير، وتُمثِّلها الخصائص الفطرية والحسية والعقلية والروحية. بعد ذلك، عرجت الباحثة على ذكر أهداف القرآن من التغيير الفردي، مُمَيِّزةً الأهداف المرحلية للتغيير من الأهداف المحورية (الغايات)؛ فالأهداف المرحلية هي تلك التي تختص بإعادة تشكيل القرآن للعقل المسلم، باتِّباع منهجية معرفية محكمة، تُمثِّل حصانة من كل موانع التغيير، وذلك عن طريق الكسب المعرفي المتواصل (البيان)، والممارسة النقدية التقويمية الدائمة (الاستغفار، والتوبة)، بعيداً عن أشكال التفكير التبريري والتجزيئي. فالاستغفار "منهجية علمية وعملية للفرد والمجتمع والأُمة لا بُدَّ أنْ تستمر، وإلّا اجتُثَّت هذه الأُمة أفراداً وجماعاتٍ من أساسها."[٥]

والأهداف المرحلية تتعلق أيضًا بالبُعْد العملي الذي يُضارِع في عمله الاستعدادات الفطرية والحسية والعقلية وتنمية القدرات الإرادية تنميةً تتكامل فيها مستويات الإرادة: إرادة الغذاء لبقاء الجسم، وإرادة استمرار النوع بالنكاح، وإرادة العقيدة والقيم، و"ذلك بنسق متكامل وَفق منهج القرآن الكريم، ليصبح الفرد إنساناً مشبع الحاجات، متوازن التفكير والسلوك، وهذا كله البداية المثلى لقيام الشخصية القرآنية قياماً متوازناً ومتكاملاً."[٦] وجعْل الإنسان أَهْلاً للقيام بمقتضيات الاستخلاف والعمران.

أمَّا الأهداف المحورية فترى الباحثة أنَّها الغايات الكبرى التي جاء القرآن لتحقيقها، وهي: التوحيد، والاستخلاف، والتمكين؛ مصداقاً لقوله تعالى: "﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النور: ٥٥). فالتوحيد هو توجيه العبودية إلى الإله الأحق بها وحده، وهو أول مراحل التغيير. أمَّا الاستخلاف فقد عَدَّته الباحثة إطار تغيير النفس، ووظيفة الإنسان في الأرض، وانعكاس ما في النفس على عمل الإنسان، وتجلي ذلك في

[٥] المرجع السابق، ص٩٢.

[٦] المرجع السابق، ص٩٥.

عمارة الأرض؛ قياماً بالأمانة، وتفاعلاً مع الكون. والتغيير بهذا المعنى يكون قانوناً استخلافياً، وعملية إعداد الفرد والجماعة للاستجابة لمتطلبات المنهاج الاستخلافي عقيدةً وعملاً على أكمل وجه، وأتم صورة؛ حتى يتحقَّق وعد الله بالتمكين الذي هو المقصد الثالث من مقاصد القرآن، وهو على قسمين: عام يستوي فيه الناس جميعاً بعد أنْ بسط الله لهم الأرض ومكَّنهم منها، وتمكين خاص بالمؤمنين؛ نصراً من الله، ودفعاً للباطل، ووراثةً للأرض بعد ما أقاموا منهج الله، وتحقَّقوا بمقاصد الدين وقِيمه.

وقد استعرضت الباحثة أهم العناصر الـمُحقِّقة لفعل التمكين، مثل ضرورة تكوين الفئة الصالحة المصلحة التي تدرك سُنن الابتلاء والتدافع، وتتحقَّق فيها معاني التقوى وشروط الصلاح، وتضبط رؤية الدين إلى العالم، وتحكمها في الحياة بوصفها شرعةً ومنهاجاً يضمن بها قيم العدل والحرية والمساواة، ويتحقَّق ظهور دين الله تعالى على الدين كله. وخلُصت الباحثة بعد طول نظر وتأمُّل إلى أنَّ "التمكين في الأرض هو التغيير الإنساني للأُمة المتحقِّق بفعل الله ووعده، وهو صبغ الحياة الإنسانية بصبغة الله تعالى عند قيام الأفعال الإنسانية بحسب مقتضيات المنهج الإلهي في القرآن الكريم."[٧]

أمَّا الفصل الثاني فقد خصَّصته الباحثة للحديث عن أُسس المنهج القرآني في التغيير الفردي، وحصرت ذلك أولاً في الأسس الجوهرية بوصفها أصيلةً وتأسيسيةً لجوهر الفرد؛ فهي أشبه بالقواعد المحكمة التي يُشيَّد عليها البناء العقدي والنفسي والفكري والقيمي والسلوكي للكائن الإنساني، وثانياً في الأسس الارتقائية؛ وهي أُسس نمائية تطورية تتدرَّج بصاحبها، وتصعد به نحو مدارج الكمال الإنساني النسبي. وقد سلكت الباحثة في ذلك منهجية واضحة؛ إذ عرضت بصورة دقيقة أُسس التغيير الجوهري، ففصَّلت القول في الأساس الفكري المنهجي المتعلق بتأسيس طريقة التفكير المنظم، وعَدَّتْه القاعدة الصُّلبة لعملية التغيير وَفق منهج القرآن؛ إذ بها تتحقَّق عملية بناء الأفكار، وتترسَّخ قواعد النظر العقلي الكلي، والرؤية المنهجية السُّننية، ومعايير التمييز بين الحق والباطل.

ولم يكن حديث الباحثة حديثاً تجريدياً نظرياً، وإنَّما اتجهت بنظرها صوب آيات القرآن لتستمد منها هدايات منهاجية هي أشبه برسالات إلى الإنسان عبر امتداد الزمان

[٧] المرجع السابق، ص١١٠.

والمكان، تكون له نوراً يمشي به في ظلمات التيه المنهجي والفكري، فقدَّمت لنا رؤية القرآن في تحقيق المنهجية الفكرية الراشدة، مثل تقرير العجز الفكري والسلوكي لتصفية العقل من مُسبِّبات الانحراف، وتخلية النفس من المعتاد. فقد جاء القرآن يومَ تنزُّله ليُخلِّص الإنسان العربي من آصار النفسية العاجزة والعقلية الاستسلامية الخانعة لمشكلات الواقع حتى أَلِف ذلك، وصار عادة. فكان القرآن المعجز يُشعِر هذا الإنسان بضرورة تجاوز الأفكار السقيمة المميتة التي رسَّختها البيئة الفاسدة التي حكمت عليه بالغياب الحضاري في الفعل التاريخي المؤثِّر، ودعاه ببلاغته وهدايته إلى اكتشاف حقيقة عجزه وحاجته إلى معرفة الله تعالى؛ فتحداهم القرآن بالإيجاد والخلق، مثلما تحداهم بعجزهم بلاغياً ومعرفياً أنْ يأتوا بمثله، فكان العجز بالإتيان بمثل القرآن هو بداية التحوُّل الإيجابي نحو تخلُّص العقل البشري من مرضي الاستغناء والطغيان. ومن مظاهر هذه الرؤية أيضاً توجيه القرآن الحكيم التفكير البشري توجيهاً منهجياً لإقامة البناء الفكري السليم، وقد استنبطت الباحثة أهم القضايا الدالة على هذا التوجيه المنهجي القرآني:

أ. استخدام الفرضيات العقلية لإيجاد القدرة على اتخاذ القرار المناسب والسليم. "وقد استعمل القرآن الكريم هذه الطريقة في بناء قواعده، وأُسسه العقدية. فمثلاً، عند تثبيت فكرة إعجاز القرآن يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء: ٨٢). فافتراض أنَّ القرآن ليس من عند الله يؤدي إلى النتيجة الحتمية وجود اختلاف كثير؛ أي لن يجدوا القرآن بما فيه كما هو."[٨]

ولا شكَّ في أنَّ هذا التوجيه المنهجي القرآني للتفكير البشري نحو الإمساك بمنهج التحقُّق من صحة الفرضيات يُعَدُّ نقلة منهجية في تاريخ العقل البشري جعلته أَهْلاً لولوج طور العقل الاستدلالي للنهوض بأكبر عملية حضارية؛ إسهاماً في حركة "التغيير" التاريخية نحو الاستجابة لبصائر الوحي.

ب. تشكيل منهج البحث الكيفي من حيث هو تعميق لسؤال "كيف" الذي يُعبِّر عن عقلية تحليلية ناقدة مبصرة تتجاوز كل تقليد فكري، أو تحجُّر عقلي، ولا تركن إلى

---

[٨] المرجع السابق، ص١٢٢.

مجرد التسليم بالقضايا والمعطيات، وإنَّما تنخرط ضمن تحوُّل فكري يُعْمِل النظر للكشف عن كيفية حدوث الأسباب المفضية إلى المُسبِّبات. وقد عرضت الباحثة نماذج من هذا المنهج الكيفي مثلما تجسَّد في الخطاب القرآني، مُبرِزةً مركز القصص القرآني في صياغة معالم هذا المنهج، وتدعيمه، وضبط حدوده، والمساحة التي يتحرك ضمنها؛ حتى يكشف عن سُنن الله تعالى وقوانينه، بعيداً عن صرفه عن مقصوده حينما يتجاوز مجاله الطبيعي، ويخوض في عالم الغيب والميتافيزيقا. وختمت الباحثة بالضبط المنهجي لإرادة الإنسان وَفق سُنن تحكم الإنسانية، فيُقدِّر نتائج أفعاله من خلالها، وهو تنظيم النمط السُّنني بوصفه ثالث قواعد بناء التفكير المنهجي وَفق المرجعية القرآنية التي أعادت تشكيل العقل البشري ليرتقي إلى مستوى الإدراك السُّنني لإرادته الفاعلة في الوجود، وفي توجيه حركة الحياة، بعيداً عن أيِّ نزعة جبرية استسلامية.

ثم شرعت الباحثة في بيان الأساس الثاني من أسس التغيير الجوهري للفرد، الذي يتعلق ببناء التصور الاعتقادي السليم عن الذات الإلهية، بوصفه الأساس الأهم في عملية التغيير الفردي، مُستعرِضةً أهم القواعد المرحلية -بحسب تعبيرها- القاضية بإقامة هذا الأساس العقدي التوحيدي، بدءاً بعدم إكراه الإنسان على التغيير العقدي، وإعادة بناء التصور الاعتقادي عن الله تعالى بناءً منهجياً سليماً ينطلق من عملية تصحيحية لتلك الانحرافات التي علت العقل البشري، فأودت به في أودية الشرك والوثنية، ويستكمل ذلك بترسيخ البناء المعرفي عن حقائق الذات الإلهية، وصفاتها، والإيمان بها؛ تعظيماً لها، وافتقاراً إليها، والتزاماً بأوامرها، فتستقر في جوهر الفرد حتى تخرجه من داعية هواه.

وتمضي الباحثة في هذا الفصل باسطةً أُسس المنهج القرآني في التغيير الارتقائي لبلوغ الكمال الإنساني، جاعلةً إياها في عنصرين رئيسين، هما: أُسس المنهج القرآني الارتقائية في التغيير الفردي، وأُسس المنهج القرآني لتحقيق الكمال الإنساني النسبي، ففصَّلت القول في الأسس الأولى التي تُعنى بارتقاء اعتقاد الفرد حتى يفعل كل إرادته الإنسانية وَفق منهج الله، ويغطي كل سلوكه العملي حتى يدرك درجة الإحسان. ولا يتحقَّق هذا المقصد العظيم إلا بالعمل بالتزامات هي أشبه بكليات منظمة للحياة؛ أولها: قيمة التكريم الإلهي

للإنسان والإلزام برعاية هذه الكرامة وما يستتبعها من قيم العدل والمساواة، وثانيها: سمو العلاقة بين الإنسان والله القائمة على مقصد العبودية الحقة التي تشغل كل تفاصيل الحياة، وثالثها: العمل بأحكام الشريعة التي راعت المقاصد والمصالح ارتقاءً بالحياة عن مستوياتها المادية الغريزية، ورابعها: التجلي الأخلاقي والقيمي الذي يرتقي بمستوى العلاقات الإنسانية إلى تعميق الإحساس بالمسؤولية الفردية تجاه الجماعة بأداء الحقوق.

ثم صارت إلى تفصيل القول في الأسس الثانية المتعلقة بالمنهج القرآني لتحقيق الكمال الإنساني النسبي، مُوضِّحةً الفارق بين طلب الارتقاء وطلب الكمال، وهو السمو في مراتب مختلفة، والإتيان بها على أتمها وأحسنها، ويكون ذلك -بحسب نظر الباحثة- باختيار الأفضل بين الأعمال، وبجهاد النفس وتزكيتها لترتقي في مراتب كمال الالتزام، إلى جانب تحري دقة التطبيق لأوامر الله تعالى، ودقة الفهم لمقاصده من أوامره؛ طلباً لأعلى الدرجات من أجل الزيادة في التغيير الارتقائي. وقد اجتهدت الباحثة في تقديم شواهد قرآنية استنبطت منها بعض معالم الهدى القرآني في الارتقاء بالكائن الإنساني نحو مدارج الكمال النسبي.

واستنبطت الباحثة في الفصل الثالث أساليب القرآن الكريم المنهجية والتنفيذية للتغيير الفردي، فشرعت في بيان الأسس المعرفية المنهجية القرآنية التي تتعلق بأساليب البلاغ القرآني ومنهجيته البانية في إحداث التغيير الفردي. فقد سلك القرآن في التعريف ببصائره وهداياته التعريف المنهجي الحكيم، وذلك عن طريق توجيه الأمر والخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب التعجب أو الاستفهام؛ حتى يستأنس الناس بخطابه، ويبلغوا درجة الاقتناع العقلي، فكان أنِ افتتح هذا الخطاب بالقراءة؛ لأنَّها مدخل التغيير ومنطلقه. وقد سلك القرآن أيضاً مسلك التقريب المعرفي للأحكام والقضايا؛ حتى يتحقَّق ذلك التغيير المنشود وَفق سُنن الله تعالى في الاجتماع البشري، وذلك عن طريق التقريب بضرب الأمثال لرفع الأستار عن وجوه الحقائق، وإيراد القصص القرآني لإدراك السُّنن الإلهية الجارية في الإنسانية، وإعمال التصوير بالأساليب البيانية التمثيلية. بيد أنَّ هذه

الأسس لا تتحقَّق مقاصدها، ولا تظهر نتائجها إلا حينما تنتهي إلى التنفيذ، وهو ما أشارت إليه المؤلِّفة بأساليب القرآن الكريم في التغيير التنفيذي، ومنها: أساليب التوجيه الإلزامي التي تعمل على تشكيل الاستعدادات النفسية لدى الإنسان للاستقبال الطوعي لمنهج القرآن، والتدرُّج في تشريعاتٍ في تنزيل أحكامه؛ لإقامة العدل بين الناس في الأحكام، ومراعاة ما يطرأ على أحوالهم من ظروف خاصة؛ تيسيراً لهم، ورفعاً للحرج عنهم، وأيضاً أساليب تحفيز التنافس للارتقاء في مراتب القرب والإحسان؛ تفعيلاً للفروق الفردية، وحفزاً لها بالترغيب والتشويق تارة، وبالمدح والتحبيب تارة أخرى؛ كل ذلك ذكرته الباحثة بمنهج تحليلي اجتهدت في إيراد شواهد مناسبة له من القرآن الكريم.

ثم بسطت في الفصل الرابع الكلام عن خصائص المنهج القرآني في التغيير الفردي وآثاره، وجعلت هذه الخصائص أربعاً: استقلال المنهج القرآني، ووسطيته، وجماله، وكماله. بعد ذلك، ساقت الباحثة أبرز آثار التغيير الفردي بمنهج القرآن الكريم؛ سواء على المستوى الفردي بإخراج الفرد المتوازن فكرياً وقيمياً وبناء الشخصية القيادية التي تتحمل مسؤوليتها تجاه المجتمع والأُمة، أو على المستوى الاجتماعي بتحقيق العدالة الاجتماعية القائمة على احترام التكريم الإلهي للإنسان، وبناء مجتمع أخلاقي متماسك قادر على الإسهام في إعادة الأُمة الوسط إلى الوجود الحضاري لإقامة الشهادة على العالمين.

وجعلت الباحثة خاتمة فصول الكتاب خامسها بعنوان موانع التغيير الفردي في القرآن الكريم. ولا شكَّ في أنَّ إدراك هذه الموانع هو فقه لسُنن الله في ابتلاء الناس بالخير والشر. وقد أوعبت الباحثة في ذكر هذه الموانع، وجعلت أولها المانع النفسي الذاتي المتمثِّل في الخلل والاضطراب الحاصل في الاستعدادات النفسية التي تحول دون حصول التغيير، مثل: الفساد العملي للحواس، وتعطيل وظائفها من حيث هي المنافذ الأولى للعلم والمعرفة، وصرفها عن الانتباه للبيان القرآني، والفساد العملي للعقل والقلب الذي يمنع العقل من التفكير المنهجي (الشك، والظن)، ويمنع القلب من الفقه القرآني (الهوى).

وقد بيَّنت الباحثة دور الشك والظن في المنع من الاستجابة العقلية المنهجية الصحيحة، وإنكار حقائق هي آيات الله في الكون من دون دليل أو برهان، فتفسد الفطرة، وتتعطل أجهزة التلقي، وينحرف الاعتقاد، ويعلو صوت الأوهام والشبهات، فينتج من ذلك فراغ العقل الذي هو من أكبر محركات الهوى القلبي الباعث على الحيلولة دون تحقُّق استجابة القلب، فتتضخم الذات، وينمو استكبارها ومكرها، وتخضع للذات الدنيا وشهواتها، فترى الحق باطلاً والباطل حقاً. وثاني هذه الموانع هو المانع الحياتي البيئي؛ سواء أتعلَّق بالجانب الأسري، وسكون الإنسان إلى الماضي الأسري المتوارث، وانشداده إليه، وعدم انفكاكه عنه، وهو ما نبَّه عليه القرآن وسمَّاه مرض الآبائية الصارف عن رؤية الحق، أم تعلَّق بالجانب الاجتماعي، وما يقوم به من تثبيت قيم واتجاهات وعادات تكون مانعة من حصول الاستجابة لمنهج الله تعالى وتحقيق التغيير الفردي المنشود.

وأنهت المؤلِّفة كتابها بخاتمة ضمَّنتها أهم نتائج الدراسة، وأبرز التوصيات التي ارتأتها ضرورية وجديرة بتوجيه النظر إليها من قِبَل الباحثين والمهتمين.

تقويم الكتاب

لا شكَّ في أنَّ تميُّز هذا الكتاب يَبرز ابتداءً من عنوانه وأطروحته المركزية؛ فصاحبته قدَّمت لنا منهج القرآن في التغيير الفردي بصورة تكاد تكون متكاملة من حيث عناوين فصول الكتاب ومباحثه، وسلكت في ذلك مسلكاً تحليلياً للمنهج القرآني، وآخرَ نقدياً أسهمت فيه -بقدْرٍ ما- في مراجعة بعض المناهج والتصورات المخالفة لمنهج القرآن، وهو بذلك يُعَدُّ كتاباً قيِّماً في بابه، لا يرتاب أحد في جلالته وشرفه؛ سواء من حيث جدة موضوعه، ودقة تناوله، وسعة مدارسته، وانفتاحه على معارف وعلوم شتى، تجمع بين علوم الشريعة وعلوم الإنسان، ولا سيما علم النفس. والباحثة لم تكن مُردِّدةً لنصوص واختيارات سابقة فحسب، بل حاورتها، وسبرت أغوارها، ورسمت في كتابها معالم جديدة جديرة بالبحث والتحقيق. وهو بذلك يُعَدُّ مرجعاً أساسياً في موضوعه، لا غنى للباحثين في الدراسات القرآنية ودارسي قضايا الإصلاح عن الارتواء من مَعينه.

ملاحظات منهجية ومعرفية

لمَّا كان كل عمل بشري يلحقه القصور والضعف، فإنه من اللازم التنبيه على بعض الملاحظات التي نبتغي بها أنْ يبلغ الكتاب شأواً عظيماً من مثاوي الحمد وخلائق المنقبة العلمية التي ذكرناها آنفاً. فقد مهَّدت المؤلِّفة لكتابها بتمهيد يحمل عنوان "صورة التغيير بين المنهج القرآني والمنهج المادي"، ولم تكشف عن عمق الفوارق بين المنهجين، مُقدِّمةً تصوراً بسيطاً لذلك؛ نظراً إلى عدم عودتها -في أثناء حديثها عن المنهج المادي في رؤيته للإنسان- إلى دراسات قيِّمة في هذا الموضوع، مثل: دراسات عبد الوهاب المسيري، ولا سيما كتابه "الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان"، وكتاب علي عزت بيجوفيتش "الإسلام بين الشرق والغرب"، وكتاب طه عبدالرحمن "روح الحداثة".

وثمَّة قضية مركزية تستحق النظر، هي قضية المصطلح، ومدى مطابقة مصطلح "التغيير" للدلالات التي صارت إليها الباحثة. فإذا رأت الباحثة أنَّ معنى التغيير الإيجابي هو ما اصطلح عليه القرآن بمصطلح "الصلاح"،[٩] فلِمَ عدَلت عن المصطلح القرآني الدال على حقيقة ما تبحث فيه، وتُعرِض عنه إلى غيره، ولا سيما أنَّها بيَّنت قول المفسرين في معنى التغيير الوارد في آيات القرآن بأنَّه: "انتقال حالة الفرد أو الجماعة من النعمة المادية إلى ضدها، إذا لم يحافظ الإنسان عليها بأداء الطاعات وشكرها"؟[١٠] ولِمَ الإعراض عن قول جميع المفسرين ممن خبروا البيان القرآني واستوعبوا دلالات مصطلحاته؟ وكيف يستقيم هذا مع قولها في هامش الصفحة نفسها أنَّ القرآن الكريم في جملته يدعو إلى التغيير. ثم صارت إلى قول آخر في أنَّ الآيتين الوارد فيها تغيير النعمة في سورتي الأنفال والرعد مقصودهما أنَّه مَن كان في نعمة فعصى فقد أُبدِلت حاله إلى سوء ومَن كان في نعمة فحفظها بالشكر وزيادة الطاعة فقد تمت نعمة الله عليه بدوامها وزيادتها،[١١] وهو ما لم يقل به أهل التفسير؟ فقول الباحثة يخالف البيان القرآني، وعامة المفسرين، ولغة العرب

[٩] المرجع السابق، ص٢٩.
[١٠] المرجع السابق، ص٤٣.
[١١] المرجع السابق، ص٤٥.

قديماً قبل أنْ يدخلها هذا اللحن المفهومي؟ فالعرب لا تعرف من معنى للتغيير والتغير سواء الفساد والإفساد، وهو المعنى الذي أثبته البيان القرآني الذي نزل بلسان عربي مبين. ولو سلكت الباحثة -مثلما تنبَّهت لذلك في مقدمتها- المنهجية المعتبرة اليوم في الدراسات القرآنية، وهي في تصورنا منهجية "الدراسة المصطلحية"، لفتحت أبواباً جديدةً في تفهُّم موضوع منهج القرآن في الإصلاح، وكشفت عن الهدى المنهاجي لرسالات القرآن، ولكان أَولى بها أنْ تعدِل عن مصطلح "التغيير" في العنوان، وتُقِيم بدلاً منه مصطلحاً قرآنياً وردت مادته في القرآن، في (١٧٩) آيةً، وهو مصطلح "الإصلاح" وما يحمله من الكثافة الدلالية، والخصب المعرفي، والنضج الاصطلاحي، والطاقة النفسية التأثيرية، والأبعاد العقدية والقِيمية والتربوية والحضارية.

وقد خاضت المؤلِّفة في بعض قضايا علم النفس، وانتهت إلى القول -نقلاً من بعض المراجع- بأنَّ الأنا تنقسم إلى قسمين، هما: الهو، والأنا الأعلى.[١٢] وليس الأمر حقيقةً على هذا النحو؛ فالجهاز النفسي عند الإنسان -بحسب مدرسة التحليل النفسي، ووَفقاً للاصطلاحات السابقة- يتكوَّن من الأنا والهو والأنا الأعلى، بحيث تعمل الأنا على إقامة التوازن بين الهو والأنا الأعلى والعالم الخارجي.

وكان للكتاب أن يغني أفكاره لو اتكأ على مراجع مهمة في هذا الموضوع، منها: كتاب "المنهج النبوي والتغيير الحضاري" لعبد العزيز برغوث؛ وذلك في أثناء حديثها عن أساليب التغيير وأهدافه، وكتاب "التوحيد" لإسماعيل الفاروقي، و"الإيمان وأثره في الحياة" لحسن الترابي؛ وذلك في أثناء الحديث عن قضية التوحيد والبناء المنهجي للتصور الاعتقادي السليم عن الله تعالى. ولعل المكث على بعض المراجع التي مرت عليها الباحثة، كان سيجلب فوائد عظيمة للكتاب مثل: ثلاثية ماجد عرسان الكيلاني عن فلسفة التربية الإسلامية ومناهج التربية الإسلامية وأهداف التربية الإسلامية، وكتاب "منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال المرحلة المكية" للطيب برغوث، ولا سيما الفصل الثالث منه؛ فقد تضمَّن الكتاب قضايا لو

[١٢] المرجع السابق، ص٧٢.

عادت إليها الباحث، واستثمرتها، وأعادت تركيبها، وانطلقت منها، لتخلُص إلى نتائج أكثر عمقاً مما توصَّلت إليه.

ومع ذلك، فإنَّ لسان الكتاب بلغ مبلغه من الإبانة في موضوعه، الذي لا يكاد يتولج إلى دفائنه وكنين أعلاقه إلا بفضلة من العلم والصبر، مع تدبيرٍ منهجي حاز أقداراً معتبرةً من الرشد والسداد، ومسلكٍ في إيراد الشواهد والنصوص على وجه معتبر من الأمانة والوثاقة، وجهدٍ معرفي لا يخفى على القارئ ما فيه من تقليبِ وجوه النظر والفهم وضروب الاستدراك والتعقب، إضافةً إلى جودة الفهم وصحة الحكم، مما يضع الباحثة أمام مسؤولية الاستمرار في استكمال معالم مشروع المنهج القرآني في الإصلاح، على مستوى الفرد، والأسرة، والمجتمع، والدولة، والأُمة.